وقف حائط البراق والفهم الكامل للتاريخ

د. المتوكل طه

شاعر وكاتب فلسطيني

تَتَسارعُ هذه الأيام إجراءات الاحتلال ضد الأرض الفلسطينية والمقدسات، وخاصة ضد الحرم القدسي الشريف، وبالذات حائط البراق، الذي هو الجدار الغربي للمسجد الأقصى، والذي يدَّعي الاحتلال الإسرائيـــلي، زوراً وبهتاناً، ملكيته لهذا الحائط الذي يسميه بـ «حائط المبكى» أو «الكوتيل».

ونعرض هنا هذه الدراســـة التي أعددَّناها، والتي توضح بشـــكل علميٍ وموضوعي ونزيه، أحقية المسلمين بهذا الحائط، الذي سيبقى حائط البراق، والذي لا يحق لأحدٍ أن يتماهى مع الصهيونية في ادّعائها بملكيته، أو أن يتنازل عنه تحت أي ذريعة أو دعوى.

***

نَظَّـــمَ اليهود مظاهرة في تل أبيب لمناســـبة ما يســـمى ذكرى تدمـــير الهيكل في 14 آب (أغســـطس) 1929، وأتبعوها في اليوم التالي بمظاهرة كبيرة في شوارع القدس لم يسبق لهـــا مثيل، حتى وصلوا قرب حائط البراق، وهناك رفعـــوا العلم الإسرائيلي، وأخذوا

ينشدون النشـــيد الصهيوني «هاتكفا» (الأمل)، وشتموا المسلمين، وأطلقوا صيحات التحدي والاســتفزاز، وقالوا «**هكوتيــل كوتلينو**»، أي «الحائــط حائطنا»، وطالبوا باستعادته، زاعمين أنه الجدار الباقي من هيكل سليمان.

وفي اليوم التالي، الذي كان ذكرى المولد النبوي الشريف، توجه أهالي القدس والقرى المحيطــة بها على عادتهم لأداء صلاة الجمعة في المســجد الأقصى، وبعد الصلاة خرج المصلّون في مظاهرة ضمّت الآلاف من المسلمين، واتجهوا نحو حائط البراق، وحطّموا منضدة لليهود كانت موضوعة على الرصيــف، وأحرقوا بعض الأوراق التي تحتوي على نصوص الأدعية اليهودية الموضوعة في ثقوب الحائط.

وبعــد أيام عِدَّةٍ تواترت الأخبار عن نيّة الصهيونيين شــنِّ هجــوم على حائط البراق واحتلاله لتثبيت حقهم في ملكيته، فتدفَّقَ مســلمو فلســطين إلى القدس لأداء صلاة الجمعة في 23 من الشهر نفسه، وهم يحملون العصي والهراوات، وحين خرج المصلون وجدوا تجمّعــاً صهيونياً يتحداهم، فوقعت صدامات ومواجهات عنيفة بين الطرفين، وفتحت الشرطة البريطانية النار على الجمهور العربي، ودخلت المُصفّحات البريطانية القدس، وفي الأيام التالية اتسعت المواجهات الدامية فشملت مختلف المدن الفلسطينية، وكانت حصيلة ما عرف باســم «ثورة البراق» مقتل 133 يهوديــاً وجرح 239 منهم، واستشهاد 116 مسلماً وجرح 232 شخصاً، وإلحاق أضرار كبيرة بالقرى والممتلكات.. وفي 17 حزيران من العام 1930 أعدمت ســلطات الانتداب البريطاني، في سجن عكا، قادة ثورة البراق: عطا الزير، ومحمد جمجوم، وفؤاد حجازي، الذين خلّدهم الشــاعر الشــعبي نوح إبراهيم بقصيدته ذائعة الصيت «من ســجن عكا طلعت جنازة» وهي ذاتها الأغنية التي قدمتها فرقة العاشــقين الفلســطينية وانتشرت في أصقاع الدنيا. كما قام الشاعر الفلسطيني المعروف إبراهيم طوقان برثاء الشهداء الثلاثة بقصيدته المميزة «الثلاثاء الحمراء»، والتي ألقاها في حفل تأبين الشــهداء في ســاحة مدرســة النجاح الوطنية (جامعة النجاح) العام 1930 بمدينة نابلس، خرج على أثرها الفلسطينيون في

المدينة بتظاهرة عارمة، جددت روح التحدي وبعثت الإصرار من جديد.

وأسفرت تلك المظاهرات أو ما عُرف بثورة البراق عن إنشاء جمعية «حراسة المسجد الأقصى»، التي انتشرت فروعها في معظم المدن الفلسطينية، واشترك الأشقاء المسيحيون مع قادة الحركة الوطنية للدفاع عن الأراضي الفلسطينية، فانتخبت في تلك الفترة اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي المسيحي التي قامت بعدة زيارات خارجية للدول العربية وبعض العواصم الأوروبية تحذر من الخطر المحدق بالمسجد الأقصى، ومحاولات اليهود بناء هيكل لهم على أنقاضه.

وعلى إثر الاضطرابات وثورة البراق، أرسلت الحكومة البريطانية لجنة للتحقيق عرفت باسم «لجنة شو»، نسبة إلى رئيسها، وبين جُملة توصياته، أوصى شو بإرسال لجنة دولية للتحقيق في موضوع حقوق العرب واليهود في البراق. وفي 15 أيار من العام 1930، وافق مجلس عصبة الأمم على الأشخاص الذين تمّ ترشيحهم من قبل بريطانيا لعضوية اللجنة.

وصلت لجنة التحقيق الدولية إلى القدس في 19 حزيران من العام نفسه، وأقامت فيها شهراً بكامله، عقدت خلاله 23 جلسة، اتَّبَعَتْ خلالها الأصول القضائية المعهودة في المحاكم البريطانية، واستمعت إلى ممثلي الطرفين العربي واليهودي، وإلى 52 شاهداً (30 استدعاهم العرب و22 استدعاهم اليهود)، وأبرز الطرفان أثناء الجلسات 61 وثيقة (26 وثيقة قدمها العرب و35 وثيقة قدمها اليهود)، وكان دفاع الفريق العربي عن حقّه في القدس يثير الإعجاب، واشترك في هذا الدفاع نخبة من رجالات البلاد من ذوي الاطلاع الواسع على الوضع الراهن للأماكن المقدسة.

كانت المشكلة الرئيسة التي واجهت اللجنة يومذاك تتمثل في محاولة الجماعات الصهيونية قلب «الوضع الراهن» بالنسبة للأماكن المقدسة، إذ ركزت جهودها منذ البداية على حائط البراق، متّبعة أساليب تدريجية تصاعدية تنتهي بها إلى ادعاء حق اليهود في ملكية «حائط المبكى»، وقد تمثلت المرحلة الأولى من تلك الخطة بجلب

اليهود الكراسي والمصابيح والستائر على غير عادتهم السابقة، ووضع هذه الأدوات أمام الحائط ليحدثوا سابقة تُمكّنهم من ادّعاء حق ملكية التي يضعون عليها هذه الأدوات، ومن ثم ملكية الحائط.

ومن الوثائق التي قدمها الحاج أمين الحسيني إلى اللجنة الدولية، وثيقة ترجع إلى زمن الحكومة المصرية، مؤرّخة في 24 رمضان 1256 للهجرة (1840 ميلادية)، موجهة من رئيس المجلس الاستشاري محمد شريف إلى أحمد آغا الدزدار، متسلم القدس، وتمنع اليهود من تبليط الرصيف المجاور للحائط، وتحذّرهم من رفع أصواتهم وإظهار المقالات عنده، وقد شكك بعض اليهود في صحة هذه الوثيقة، بيد أن د. أسد رستم، أستاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الأميركية، عضو المجمع العلمي اللبناني، درس هذه الوثيقة، مستخدماً خبرة غنية ومنهجية بحثية أصيلة، وأرسل نتيجة دراسته مزودة بالوثائق المقارنة إلى الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين العام 1930، أكد له في نهايتها ما نصه: «**بناء على ما نعرفه من نوع ورقها وقاعدة خطها وأسلوب إنشائها وطريقة تنميرها وتاريخها، وبناء على موافقة النصوص التاريخية لها ولاهتمام اليهود بأخربة الهيكل، نرانا مضطرين أن نرجح أصليتها ترجيحاً علمياً تاماً**».

ويشكِّلُ حائط البراق الجزء الجنوبي من السور الغربي للحرم القدسي الشريف، بطول حوالي (47 متراً، وارتفاع حوالي 17 متراً)، ولم يتخذه اليهود مكاناً للعبادة في أي وقت من الأوقات إلا بعد صدور «وعد بلفور» العام 1917.. ولم يكن هذا الحائط جزءاً من ما يُسمى بـ الهيكل اليهودي، ولكن التسامح الإسلامي هو الذي مكّن اليهود من الوقوف أمامه، والبكاء على زواله، وزوال الدولة اليهودية المدّعاة أو قصيرة الأجل في العصور الغابرة.

وجاء في الموسوعة اليهودية، الصادرة العام 1917، أن الحائط الغربي أصبح جزءاً من التقاليد الدينية اليهودية حوالي العام 1520 للميلاد، نتيجة للهجرة اليهودية من إسبانيا، وبعد الفتح العثماني العام 1517.

وفي عهد الانتداب البريطاني على فلسطين ازدادت زيارات اليهود لهذا الحائط، حتى شعر المسلمون بخطرهم، ووقعت ثورة البراق بتاريخ 23/ 8/ 1929 م، والتي استشهد فيها العشرات من المسلمين، وقتل فيها عدد كبير من اليهود، واتسعت حتى شاركت فيها عدد من المدن الفلسطينية، وتمخَّضت الأحداث عن تشكيل لجنة دولية لتحديد حقوق المسلمين واليهود في حائط البراق، وكانت اللجنة برئاسة وزير خارجية السويد الأسبق «أليل لوفغرن»، وعضوية نائب رئيس محكمة العدل الدولية الأسبق السويسري «تشارلز بارد»، وبعد تحقيق قامت به هذه اللجنة واستماعها إلى وجهتي النظر العربية الإسلامية واليهودية، وضعت تقريراً في العام 1930، قدمته إلى عصبة الأمم المتحدة أبدت فيه حق المسلمين الذي لا شُبْهة فيه بملكية حائط البراق.

ومن اليهود الذين استمعت إليهم اللجنة الدولية الدكتور مردخاي إلياش وديفيد يلين والحاخام موشي بلاو، وقدم الدكتور كورش إدلر وبعض كبار رجال اليهود في القدس مذكّرة خطيّة تشرح وجهة النظر اليهودية بشأن حائط البراق. ومن العرب الذين استمعت إليهم اللجنة عوني عبد الهادي، وأحمد زكي باشا، ومحمد علي باشا، والشيخ اسماعيل الحافظ، وأبرزوا للجنة وثائق ومستندات عدة، وقد كانت حجج اليهود أن حائط البراق هو من بقايا الهيكل، وأن «الكوتل معرافي» لا يمكن هدمه على الإطلاق، لأن الحضور الإلهي «شكينة» مستمر على الدوام، ولذلك فإن اليهود يرغبون في الصلاة أمام هذا الحائط، وينوحون على خراب الهيكل الذي كان في (9 آب عبري). وقال اليهود إن استعمال أدوات كالمقاعد، وستار لفصل الرجال عن النساء، وخزانة تتضمن أسفار التوراة، وقناديل للطقوس، وطشت للغسيل، كان شائعاً عند الحائط، ومسموحاً به من الحكومة العثمانية قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بمدة طويلة، ووفقاً لهذه الحجّة يجب اعتبار هذه الحالة بأنها هي الحالة الراهنة. وقالوا إن المادة (15) من صك الانتداب البريطاني تقضي على الدولة المنتدبة بأن تضمن لليهود حرية العبادة عند الحائط حسب الطريقة المفروضة في شعائرهم وطقوسهم الدينية من

دون أدنى تدخل من العرب، ويجب أن يمنع العرب من إزعاج اليهود أثناء صلواتهم، سواء بالمرور عند الحائط، أو بصوت الأذان، أو إقامة الذِكْر قرب الحائط. وعلى رغم كل هذه المطالب لم يدَّعِ اليهود ملكية الحائط، ولكنه من صنف الأملاك المقدسة التي لا يمكن الإتّجار بها.

وقال اليهود إن قصَّة البراق يرجع عهدها إلى عدة أجيال بعد زمن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وإنَّ البراق لم يأتِ ذكره في القرآن، ولا توجد قدسيّة للرصيف الكائن أمام الحائط لكون النبي – عليه السلام – مرّ به ليلة الإسراء، لأنه لم يرد ذكره في الكتب المقدسة، وإن المسلمين لم يطلقوا اسم البراق على الحائط إلا في السنوات الاخيرة، كما أن الدليل الرسمي للحرم القدسي الشريف الذي صدر عن المجلس الإسلامي العام 1924 لم يشر إلى قدسية خاصة للحائط، وقالوا إن وقفية حارة المغاربة لا تؤثر في قيام اليهود بفروض العبادة عند الحائط.

وعلى أساس هذه الادعاءات طلب اليهود من اللجنة أن تعترف بأن حائط المبكى (كما أسموه) مكان مقدس ليهود العالم قاطبة، وأن تقرر أن لليهود الحق في التوجه الى الحائط للصلاة وفقاً لطقوسهم الدينية دون ممانعة من أحد، واتخاذ التدابير الضرورية كافة لإخلاء أملاك وقف المغاربة على أن تقبل دائرة الأوقاف الإسلامية بدلاً منها مباني جديدة في موقع لائق في القدس.

أما مُلَخَّص تصريحات أحمد زكي باشا ومحمد علي باشا التي أدليا بها نيابة عن المسلمين، فهو أن الأمة الإسلامية أعلنت رسمياً، وفي كل الظروف، عدم اعترافها بالانتداب البريطاني على فلسطين. وعليه فهي لا تريد أن تتقيّد بأي نظام مستمد من هذا الانتداب، ولا الإقرار بأيِّ نتيجة ترجع إلى ما يسمى بـ «وطن قومي لليهود»، كما قرر المسلمون أن النزاع على ملكية أماكن العبادة، أو على حقوق مدّعى بها على هذه الأماكن، يجب أن يرفع إلى الهيئة المختصة دون غيرها للفصل في أمر الوقف والأماكن الإسلامية المقدسة.

أما الحجج التي أبداها الفريق الإسلامي فكانت أن الرومان طردوا اليهود من

فلســطين على إثر تدمير الامبراطور «تيتوس» الهيكل سنة 70 للميلاد، وإزالة آثاره من قبل الإمبراطور «هادريان» ســنة 135 للميلاد. ثمَّ حكم البيزنطيون البلاد إلى أن جاء الفتح الإســلامي في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، واستمرت البلاد في حوزة العرب والمسلمين جيلاً بعد جيل باستثناء تسعين سنة حكم فيها الصليبيون، ولم تكن فلسطين في القرن السابع للميلاد عندما فتحها المسلمون يهودية، ولم يكن في القدس أي يهودي، ولم يتعرض المســلمون لليهود بأي أذى، بل أكرموهــم، ولم يدّع اليهود في يوم أن لهم الحق في حائط الــبراق، وأن «وعد بلفور» العام 1917 هو الســبب في وقوع الخلاف وتحريض اليهود على المطالبة بحق الصلاة أمام الحائط.

كــما أن حائط البراق جزءٌ لا يتجزَّأ من المســجد الأقصى المبــارك ومن الحرم القدسي الشريف، وهو وقْف إســلامي لعائلة «بومدين» الجزائرية المغاربية المســلمة، وليس فيه حجر واحد يعود إلى عهد الملك ســليمان، والممر الكائــن عند الحائط ليس طريقاً عاماً، بل أُنشــئ فقط لمرور ســكان محلة المغاربة وغيرهم من المســلمين في ذهابهم إلى مسجد البراق، ومن ثم إلى الحرم الشريف، وقد كان السماح لليهود بالسلوك إلى الحائط من قبيل التســامح في المرسوم الصادر عن إبراهيم باشــا في العام 1840، وليس لأداء الصلوات.

إنَّ تطبيق الحالة الراهنة في الأماكن المقدســة ليس له علاقة بحائط البراق، لأن الحق في ملكيته أو الانتفاع به عائد للمسلمين، وأما مدى التسامح فهو الذي يستطيع أصحاب الــبراق إبداءه، ولا يمكــن أن يتجاوز الحــدود التي يعيِّنونها. وقــد كان الكولونيل «ســايمس» قد اعترف بهذا الأمر عندما مثل الدولة المنتدبة أمام لجنة الانتداب الدائمة في دورتها التاسعة لســنة 1926 م، حيث قال: «جرت عادة اليهود بالتوجّه إلى الحائط الغــربي للبكاء على عظمة إسرائيل، على أن الموقع الذي يحصل فيه البكاء عائد للوقف الإسلامي... وإذا كان يسمح لليهود بالتوجه إلى هذا المكان، فلا يعني ذلك أن الموقع هو ملكهم». وأشار المســلمون إلى أن الدولة المنتدبة في كتابها الأبيض الذي أصدرته

في شـــهر تشرين الثاني (نوفمبر) من العام 1928 اعترفـــت صراحة بأن الحائط الغربي والمنطقة المجاورة له ملك المسلمين خاصة.

وهكذا، فـــإن اليهود حاولوا العـــام 1929 أن يؤيدوا مزاعمهم بالقـــوة، حتى ينفّذوا نواياهم الحقيقية ووضع يدهم على جزء لا يتجزّأ من الحرم الشريف، ورغم أنهم قالوا أمام اللجنة الدوليـــة إنهم لا يدَّعون حقَّ الملكية في الحائـــط، إلا أنَّهم كانوا يرمون في الحقيقة إلى تحقيق هذه الغاية. يؤكد ذلك ما جـــاء في دائرة المعارف البريطانية، والذي يقول: «من أكبر النتائج التي تلفت النظر والعناية التي تولدت من العداء نحو الساميين ظهـــور حركة اليقظـــة القومية في اليهود بمظهر ســـياسي، وهي الحركـــة التي عرفت بالصهيونيـــة... إن اليهود يتطلعون إلى افتداء إسرائيل، واجتماع الشـــعب اليهودي في فلسطين، واســـتعادة الدولة اليهودية، وإعادة بناء الهيكل، وإقامة العرف الداودي في القدس ثانية، وعليه أمير من نسل داود».

وقـــد اختممت اللجنة الدوليـــة تقريرها بالنتيجة التالية: «للمســـلمين وحدهم تعود ملكيـــة الحائط الغربي ولهـــم الحق العيني فيه، لكونه يؤلف جزءاً لا يتجزأ من ســـاحة الحرم الشريف، التي هي من أملاك الوقف الإسلامي. وللمسلمين أيضاً تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائـــط، وأمام المحلة المعروفة بحـــارة المغاربة، لكونه موقوفاً حسب أحكام الشرع الإسلامي».

ولكن سلطات الاحتلال، وبعد حرب 1967، واستيلائها على القدس القديمة، هدمت حارة المغاربة، واســـتولت على حائط البراق مباشرة، وأنشأت ساحة كبيرة مبلّطة أمام الحائط لتســـتوعب اليهود الذين يحضرون للصلاة أمام الحائط، وفي هذه الساحة اليوم يوجد الباب الأول للنفق الشهير الذي حفرته سلطات الاحتلال موازياً للسور الغربي للحرم الشريف بطول حوالي 488 متراً، وأوصلوه بقناة رومانية قديمة طولها 80 متراً، وفتحوا باباً ثانياً في نهاية النفق عند مدرسة الروضة الإسلامية العام 1996.

حتى بين اليهود أنفســـهم، تظهر أحياناً أصواتٌ تخلع القُدســـيّة اليهودية عن «حائط

المبكـــى»، وتعتبر أن لا علاقة للدين اليهودي بهذا الموقـــع، نظراً لعدم وجود أية صلة بينه وبين شريعة النبي موســـى، وفي أيامنا هذه، لجأ بعض اليهود المستنيرين إلى التذكير بانتفاء تلك القدسية. وعلى سبيل المثال، نشرت تصريحات للحاخام يهورام مزور، أمين سر مجلس اليهودية التقدمية، في العدد الأول من مجلة «بتلم» اليهودية الصادرة عن هذا المجلـــس، صيف 1999، تحت عنوان «هل من المهم تأديـــة الصلاة على وجه التحديد عند حائط المبكى؟!». ومما ذكره الحاخام مزور في هذا المقال أنه لا توجد قدسية لحائط المبكى في الديانة اليهودية، وأنه يرفض إقامة حفلات البلوغ أو أي شعائر أخرى هناك، وقال الحاخام مزور: «إننا نلتقي طوال ســـاعات اليوم أشخاصاً في هذا المكان يؤدون الصلاة في موقع هم قدسوه». وأضاف: «إن ذلك يشبه عبادة الأوثان، وإن على مجلس الحاخامات التقدميين في إسرائيل اختيار موقع آخر لصلاة اليهود».

وكثيرة هي الدراسات التي نشرها متخصصون يهود، وتؤكد أن الرواية التوراتية تفتقر إلى أي دليل أثري، ومنها دراسات البروفســـور اليهودي إسرائيل فنكلشتاين، رئيس قســـم الآثار في جامعة تل أبيب، وزميله دافيد أو سسيشـــكين، اللذين أكدا أن قدس الأقداس لم يشـــيّد في عهد ســـليمان وإنما قبله بمئة عام، وأن هذا العهد غامض جداً، وليس هناك أي سند لما ورد في «العهد القديم» بشأنه.

ومما ســـبق، يمكن استخلاص موقف واحد لا تشوبه شـــائبة، وليس له بديل وهو أن حائط البراق حائط إســـلامي وجزء لا يتجزّأ من المســـجد الأقـــصى والحرم القدسي الشريـــف. ولا يحق لأيٍ كان أن يدّعي ملكيته، أو يجري عليه تغييرات تبدّل معالمه، أو أن يضفي عليه ملامح جديدة تنسف شخصيته الأصيلة.

كما لا يحق لأي أحد أن يوافق دولة الاحتلال على إجراءاتها العنصرية والظالمة وفظاعاتها ضـــد التاريخ والمقدســـات، أو أن يبارك هذه المجازر ضد حائط البراق والمقدســـات الإســـلامية والمسيحية. كما لا يحق لأي مسلم أو عربي أو فلسطيني، ولأي سبب كان، أن يتنازل عن حجر واحد أو ذرة تراب من حائط البراق أو غيره من المقدســـات، لأن

ذلك سيكون تنازلاً عن الحرم القدسي والقدس والمقدسات.

ونقدر عالياً الموقف الفلسطيني والعربي والإسلامي والدولي الثابت، الذي يدافع عن البراق والأقصى وعن كل المقدسات الإسلامية والمسيحية في فلسطين، ما يجعلنا نؤكد على هذا الموقف، ونطالب بكل عوامل تعميقه وديمومته.

***

قصيدة «الثلاثاء الحمراء» لإبراهيم طوقان

عن شهداء البراق

***

توطئة

«الثلاثاء الحمراء» هي قصيدة كتبها الشـــاعر الفلســـطيني الراحل إبراهيم طوقان، في وصف إعدام مُلْهبي ثورة البراق (1929)، على يد سلطات الانتداب البريطاني، في 17 حزيران 1930: محمد جمجوم، وفؤاد حجازي، وعطا الزير.. ويقول فيها:

لَّـــا تَعَرَّضَ نَجْمُـك المنحوسُ

وترَّنحت بعُرى الحبالِ رؤوسُ

ناح الأَذانُ وأعولَ النـــاقوسُ

فالليل أكدرُ، والنَّهارُ عَبوسُ

طَفِقَتْ تثورُ عواصفُ وعـــواطفُ

والموتُ حيناً طائفُ أو خـاطفُ

والمِعْولُ الأَبديّ يُمْعِن في الثرى

لِيردَّهـمْ في قلبِهـــا المتحـجِّرِ

***

يومٌ أطــلَّ على العصور الخاليَه

ودعا: «أمرَّ على الورى أمثاليَهْ؟»

فأجابَهُ يومٌ: «أجلْ أنا روايَه

لمحــاكم التَّفتيش، تلكَ الباغِيَه

ولقــد شهدتُ عجائباً وغرائباً

لكنَّ فيــكَ مصـائباً ونوائباً

لم ألْقَ أشباهاً لهـا في جورْهِا

فاسأل سواي وكم بها مِنْ منكَرِ»

* * *

وإذا بيــومٍ راسفٍ بقيودِهِ

فأجابَ، والتاريخُ بعضُ شهودِهِ:

«أنظر إلى بيضِ الرَّقيق وسودِهِ

مَنْ شاءَ كانوا مُلكَهُ بنقــودِهِ

بشرٌ يُباعُ ويُشترى فتحررَّا

ومشى الزَّمانُ القهقرى فيما أرى ...

فسمعتُ مَنْ منعَ الرَّقيق وبَيْعَـهُ

نادى على الأَحرارِ يا مَنْ يشترى»

وإذا بيـومٍ حالكِ الجِلبْـابِ

مُتَرّنـحٍ من نَشْوةِ الأَوْصابِ

فأجابَ : « كلاّ، دون ما بكَ ما بي

أنا في رُبى (عالية) ضاع شبابي

وشهدتُ للسفَّاح ما أبكى دما

ويلٌ له ما أظلما لكنما...

لم ألْقَ مِثْلَكَ طالعاً في روعـةٍ

فاذهبْ لعلَّكَ أنتَ يَومُ المحشرِ »

* * *

(اليومُ) تُنكرهُ اللَّيالي الغـابره

وتظلّ تَرْمقُه بعينٍ حـــائره

عجباً لأَحكام القضاءِ الجـــائرهْ

فأخفُّها أمثالُ ظُلمٍ سائـره

وطن يسيرُ إلى الفناءْ بلا رجاءْ

والداءُ ليس لهُ دواءْ إلاّ الإباءْ

إنَّ الإباءُ مناعةٌ، إن تَشْتَـمِلْ

نفسٌ عليه تَمُتْ ولَّما تُقهرِ

* * *

الكلُّ يرجو أن يُبكِّرَ عَفْـوُهُ

نَدْعو له ألاّ يُكَدَّرَ صفوُهُ!

إنْ كان هذا عطفُهُ وحُنُوُّهُ...

عاشتْ جلالَتُهُ وعاشَ سُموّهُ!

حَمَلَ البريدُ مُفصّلا ما أُجملا

هلاَّ اكتفيتَ توسُّلا وتسوُّلا

والموتُ في أخــذِ الكلامِ وردِّهِ

فخذِ الحياةَ عن الطَّريقِ الأَقصرِ

* * *

ضاق البريدُ ومـا تغيَّرَ حالُ

والذّلّ بين سطورِنـا أشكـالُ

خُسْرانُنــا الأَرواح، والأَموالُ

وكرامةٌ – يا حسرتا – أسمالُ

أوَ تُبصرون وتسألونْ ماذا يكونْ ؟!

إنَّ الخداعَ له فنونْ مِثْلَ الجنونْ

هيهاتَ، فالنفسُ الذليلةُ لو غَدَتْ

مخلوقةً من أعينٍ لم تُبْصرِ!

* * *

أنَّى لشاكٍ صوتُه أنْ يُسْمَـعا

أنَّى لباكٍ دمعهُ أنْ يَنفعـا

صخرٌ أحسَّ رجاءَنا فتصدَّعا

وأتى الرجاءُ قلوبَهم فتقطَّعا. .

لا تعجبوا، فمن الصخورْ نبعٌ يفورْ

ولهم قــلوبٌ كالقبور بلا شعورْ

لا تلتمسْ يوماً رجاءً عندَ مَنْ

جرَّبْتَهُ فوجدتَهُ لم يَشْعُرِ

***

الساعات الثلاث

الساعة الأولى

أنا ساعةُ النفسِ الأبيَّـه الفضـلُ لي بالأسبقيَّه

أنا بِكْرُ ساعـات ثلاثٍ كلها رمزُ الحميَّه

بِنْتُ القضيَّةِ إنَّ لي أثراً جليلاً في القضيَّـه

أَثَرَ السّيوف المشْرَفيّــةِ والرماحِ الزاغبـيَّه

أودعتُ في مُهجِ الشبيبةِ نفْحــةَ الرّوح الوفـيَّه

لا بــدَّ من يوم لهم يَسْقي العدا كأسَ المنيَّـه

قسماً بروح (فؤاد) تصعدُ من جوانـحِهِ زكيـه

تأتي السواءَ حفيــةً فتحلّ جنَّتَها العـليّــَه

ما نـال مرتبـةَ الخلودِ بغيْرِ تضحيــةٍ رضيـه

عاشتْ نفوسٌ في سبيلِ بلادِهـا ذهبتْ ضحيَّة

الساعة الثانية

أنا ساعةُ الرجل العتيدِ أنا ساعةُ البأسِ الشـديدِ

أنا ساعـةُ الموت المشـرِّفِ كلَّ ذي فعلٍ مجيدِ
بطَلي يُحطِّمُ قيدَهُ - رمزاً لتحطـيم القيـودِ
زاحمتُ مَنْ قَبْلي لأَسبِقَها إلى شَرَفِ الخـلودِ
وقَدَحْتُ في مُهَجِ الشبابِ شرارةَ العزمِ الوطيدِ
هيهاتَ يُخدَعُ بالوعودِ، وأن يُخـدَّرَ بالعهودِ
قسماً بروحِ (محمد) : تَلْقى الردى حُلْوَ الورودِ
قسماً بأُمِّكَ عنـد موتِكَ وهي تهتفَ بالنَّشيدِ
وترى العزاءَ عَنْ ابنِها في صيتِهِ الحسنِ البعيدِ
مـا نال مَنْ خدمَ البلادَ أَجلَّ من أَجْرِ الشهيدِ

الساعة الثالثة

أنا ساعةُ الرّجل الصَّبور أنا ساعةُ القلبِ الكبيرِ
رمزُ الثَّباتِ إلى النهاية في الخـطيرِ من الأُمور
بطَلي أشدّ على لقـاءِ الموتِ من صُمِّ الصّخورِ
جذلان يرتقبُ الردى فاعجبْ لموتٍ في سرورِ
يَلْقى الإله (مُخَضَّبَ الكفَّيْن) في يومِ النّشورِ
صَبْرُ الشبابِ على المصابِ وديعتي ملءُ الصّدورِ
أنْذرتُ أعـداءَ البـلادِ بشـرِّ يومٍ مُستطـيرِ
قسماً بروحك يا (عطاء) وجنَّةِ المَلِكِ القديرِ
وصغارِكَ الأشبالِ تبكي اللَّيثَ بالدّمعِ الغزيرِ
ما أنقذَ الوطنَ المفدَّى غيرُ صبَّارٍ جَسورِ

الخاتمة

الأبطال الثلاثة

أجسادهُم في تربة الأَوطانِ

أرواحُهُم في جنَّةِ الرّضْوانِ

وهناكَ لا شكوى من الطغيانِ

وهناك فيْضُ العفْوِ والغفرانِ

لا ترْجُ عفواً من سواهْ هو الإلهْ

وهوَ الذي ملكَتْ يداهْ كلَّ جاهْ

جَبَرُوتُه فوقُ الذين يغرّهُم

جَبَرُوتُهمْ في برِّهمْ والأَبحرِ

**

وكان الإنجليز في أعقاب ثورة البراق وأحداث العام 1929، شكَّلوا محكمة عسكرية، وذلك بدعوى محاكمة العرب واليهود الذين اشتركوا في الأحداث، وأصدرت حكماً بإعدام ثلاثة من الفلسطينيين هم: محمد جمجوم، فؤاد حجازي، وعطا الزير. وقال فؤاد حجازي لزائريه: «إذا كان إعدامنا نحن الثلاثة يزعزع شيئاً من كابوس الإنجليز عن الأمَّة العربيِّة الكريمة، فليحل الإعدام في عشرات الألوف مثلنا كي يزول هذا الكابوس عنا تماماً». وقد نفذ فيهم حكم الإعدام، ولم يكترث الإنجليز بالوساطات العربية لتخفيف حكم الإعدام.

وقال الشهيد فؤاد حجازي في وصيته التي كتبها بخط يده، وبعث بها إلى صحيفة اليرموك يوم 18/ 6/ 1930م:

«إذا كان لديَّ ما أقوله وأنا على أبواب الأبديّة فإنّي أوجز القول قبل أن أقضي:

أخويَّ العزيزين يوسف وأحمد وفَّقكما الله، رجائي إليكما أن تفعلا بما أُوصيكما به، أوصيكما بالتعاضد والمحبَّة الأخوية، والعمل بجدٍّ واجتهاد على مكافحة شقاء الدنيا لإحراز السّبق في مضمار هذه الحياة التي ستقضونها – إن شاء الله – بالعزِّ والهناء.

ورجائي إليك يا يوسف.. يا حبيبي أن تلجأ إلى الهدوء والسكينة، وأن لا تأتي بعمل تكون عاقبته وخيمة، عليك أن لا تتأثر لمصرع فؤاد، لأنَّ فؤاد لم يخلق إلاّ لهذه الساعة، وله الشرف الأعلى بأن يقضي في سبيل القضية العربية الفلسطينية. عليك بطاعة والدتك وشقيقك يوسف.

أحمد.. السكينة السكينة، الهدوء الهدوء، ملابسي تحفظ شهراً ثم تُغسل، ممنوع قطعياً تنزيل أي طقم عليَّ سوى اللباس والفنيلّة والكفن داخل تابوت.

البكاء، الشخار، التصويت، هذا ممنوع قطعياً، لأنَّني لم أكن أرضاها في حياتي، خاصة تمزيق الثياب. يجب الزغردة والغناء، واعلموا أن فؤاداً ليس بميت، بل هو عريس ليس إلاَّ.

يجب الاستعلام بواسطة الدلاّل عما إذا كان يوجد لأحد شيء بذمة فؤاد وسداده فوراً، وأعود فأوصيكم بطاعة الوالدة.

إنّ الضريح سيشيّد على نفقة لجنة الإسعاف العربية بالقدس، فلتعمل جنينة عند ضريحي بداربزين على الدّاير.

عليك أن ترفع رأسك بين أقرانك وأنت لا تدع للحزن سبيلاً إلى قلبك، وأن ترتدي دائماً الملابس الجديدة، وأن تَحْلُقَ يوميَّاً، عليك أن تذهب للنزهة والأفراح كعادتك، بل أكثر.

عليك بالسّهر على مستقبلك، فإذا كان الله قضى بذلك عَلَيَّ فما عليك أنت إلاّ

الاطمئنان لحكمه تعالى، إنَّني من جهتي أسامح كل من شهد عَلَيّ، خاصةً سعيد العسكري، وغداً يوم الحشر سأقابله وأطلب حقِّي منه من الله سبحانه وتعالى، وعليك أن لا تضمر لأحد سوءاً، كما أوصيك بطاعة الوالدة واحترامها.

حبيبي أحمد:

أمّا أنت يا أحمد فعليك العناية بدروسك والاجتهاد فيها، وأن لا تجعل القلق يستولي عليك.

تأثَّرت من قولك حين زيارتك لي إنَّك ستأخذ بثأري، فهذا يا حبيبي لا يعنيك أنت لأنَّني لستُ بأخيك وحدك، بل أنا قد أصبحت أخا الأمة العربية، وابن الأمة جمعاء.

يا والدتي:

أُوصيك وصيَّة، والوصية – كما قيل – غالية:

أن لا تذهبي إلى قبري إلاَّ مرَّة في الأسبوع على الأكثر، ولا تجعلي عملك الوحيد الذهاب إلى المقبرة.

إنَّ يوم شنقي يجب أن يكون يوم سرور وابتهاج، وكذلك يجب إقامة الفرح والسرور في يوم 17/ 6 من كل سنة، إنَّ هذا اليوم يجب أن يكون يوماً تاريخياً تُلقى فيه الخُطب، وتُنشد الأناشيد على ذكرى دمائنا المهراقة في سبيل فلسطين والقضية العربية».

***

وحكمت المحكمة على 800 من العرب بالسجن سنوات مختلفة، أما اليهود فقد اكتفت بالحكم بإعدام يهودي واحد هو خانكيز، وهو شرطي يهودي قتل عائلة عربية كاملة في بيتها في يافا، ولكن الإنجليز خففوا عنه حكم الإعدام إلى السجن لعشر سنوات، قضى

بعضها في السجن، ثم أطلق سراحه.

وقام الفلسطينيون بالاحتجاج على حكم المحكمة الجائر والمتحيز لليهود، ثم قاموا بتشكيل لجان إغاثة لتقديم العون والمساعدة لعائلات الشهداء والجرحى.

وقد هزَّ إعدام الشهداء الثلاثة على يد الإنجليز مشاعر الفلسطينيين، في الداخل والخارج، إلَّا أنَّ الإنجليز لم يأبهوا وأعدموهم. **وقال عز الدين القسام عقب إعدامهم في خطبة نارية: «يا أهل حيفا .. يا مسلمون، ألا تعرفون فؤاد حجازي؟ ألم يكن فؤاد حجازي وعطا الزير ومحمد جمجوم إخوانكم؟ ألم يجلسوا معكم في دروس جامع الاستقلال؟ إنهم الآن على المشانق... حكم عليهم الإنجليز بالإعدام من أجل اليهود».**

وتابع القسام قائلاً: «أيها المؤمنون: أين نخوتكم؟ أين إيمانكم؟ وأين هي مروءتكم؟ ... إن الصليبية الغربية الإنجليزية، والصهيونية الفاجرة اليهودية، تريد ذبحكم كما ذبح الهنود الحمر في أميركا، تريد إبادتكم أيها المسلمون، حتى يحتلوا أرضكم من الفرات إلى النيل، ويأخذوا القدس، ويستولوا على المدينة المنورة، ويحرقوا قبر الرسول... إنهم يريدون اللعب بأمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وتحويلهن إلى خدم لهم وسبايا».

وكان تنفيذ حكم الإعدام بحق الشبان الثلاثة قد بدأ في الساعة الثامنة، حيث نُفذ الحكم في الشهيد فؤاد حجازي، وفي التاسعة نُفذ في الشهيد عطا الزير، وفي العاشرة نفذ في الشهيد محمد جمجوم، ووصف الشاعر إبراهيم طوقان هذه الساعات الثلاث في قصيدته «الثلاثاء الحمراء».

وإذا كان الحكم البريطاني قاسياً بحق المواطنين العرب، فإن أسباب اندلاع ثورة البراق لم تؤخذ بالحسبان، ما يؤكد أن اليهود قد أشعلوا فتيل المعركة تلك، وأن البريطانيين قد ساعدوهم من خلال إيقاع أحكام قاسية بحق المواطنين العرب، لمنعهم من الإقدام على التصدي لليهود، ومنع أنشطتهم العدائية مستقبلاً.

لقد كانت التظاهرة الضخمة لليهود في 14 آب 1929 في تل أبيب، والتي جاءت لمناسبة

ذكرى تدمير ما يسمى «هيكل سليمان» المزعوم، ثم نظموا تظاهرة ثانية في اليوم التالي في شوارع مدينة القدس، وتوجهوا نحو جدار الأقصى الغربي، جدار البراق أو «حائط المبكى» كما يحلو لليهود أن يسموه، وهناك رفعوا العلم الإسرائيلي، وأنشدوا «الهتكفا» (النشيد القومي الصهيوني)، وهاتان التظاهرتان كانتا الشرارة التي أشعلت فتيل ثورة البراق، إذ تجمع المسلمون في اليوم التالي لهذه الحادثة، وكان يوم جمعة وذكرى المولد النبوي الشريف، في باحة المسجد الأقصى المبارك، وساروا بعد الصلاة في تظاهرة كبيرة حطموا خلالها منضدة لليهود على رصيف حائط البراق، وأحرقوا أوراق الصلوات اليهودية الموضوعة في ثقوب الحائط.

وتوالت الاشتباكات الدموية حتى حصل الانفجار يوم 23 آب/ أغسطس، والذي يعرف تاريخياً بـ «ثورة البراق»، حيث هجم العرب بأعداد كبيرة على اليهود، وتدخل «البوليس» البريطاني بعنف، مستخدماً الأسلحة المختلفة، بما في ذلك الطائرات الحربية، وعاشت فلسطين للمرة الأولى أسبوعاً دموياً بين العرب واليهود، بعدما امتدت الاشتباكات إلى المدن الأخرى والقرى المختلفة.

وكانت نتيجة ذلك عشرات القتلى والجرحى من الجانبين، وسيطر القلق والتوتر على أجواء البلاد، وزاد من أجواء التوتر ذلك المنشور الذي أصدره المندوب السامي الثالث (تشانسلور) في أول أيلول، إثر عودته إلى البلاد من لندن، فهو لم يكن متسرعاً ومنحازاً لليهود فحسب، بل كاذب في افتراءاته على العرب، ووقح جداً في تعابيره. ونقتطع مما جاء في بيانه الذي أعلنه تعليقاً على تلك الأحداث:

«عدت من المملكة المتحدة فوجدت بمزيد من الأسى أن البلاد في حالة اضطراب، وأصبحت فريسة لأعمال العنف غير المشروعة، وقد راعني ما عملته من الأعمال الفظيعة التي اقترفتها جماعات من الأشرار سفاكي الدماء، عديمي الرأفة وأعمال القتل الوحشية التي ارتكبت بحق أفراد الشعب اليهودي، الذين خلوا من وسائل الدفاع بقطع النظر عن عمرهم، وعما إذا كانوا ذكوراً أو إناثاً،

والتي صحبتها كـــما وقع في الخليل أعمال همجية لا توصـــف، وحرق للمزارع والمنازل في المدن وفي القرى، ونهب وتدمير الأملاك. إن هذه الجرائم أنزلت على فاعليها لعنات جميع الشـــعوب المتمدنة في أنحاء العالم قاطبة، فواجبي الأول أن أعيد النظام إلى نصابه في البلاد، و أوقع القصاص الصارم بأولئك الذين سوف يثبت عليهم أنهم ارتكبوا أعمال عنف وستتخذ جميع التدابير الضرورية لإنجاز هاتين الغايتين».

لقد كانت ثورة البراق مفصلاً مهماً في تاريخ النضال الفلسطيني، أثبتت عدوانية اليهود ونواياهم المبيتة لأرض فلســطين وشــعبها، كما كانت وصمة دامغة في تاريخ القضاء البريطــاني، ولعل التضحية بالذات في ســبيل المجموع قد تجلــت بأنصع صورها من خلال تســابق الشهداء الثلاثة إلى حبل المشــنقة، حيث أراد كل واحد منهم أن يسبق زميليه إلى الحبل الرهيب، في محاولة لإيصال رســالة واضحة إلى الجلاد البريطاني، وقد وصلت الرسالة بالفعل.

وفي هذا الصدد، تصف فدوى طوقان اليوم الذي تم فيه تنفيذ حكم الإعدام بالقول: ***«وفي نهاية الثلاثاء السابع عشر من حزيران من عام 1930، كان التكبير على المآذن وقرع النواقيس في الكنائس يتجاوب صداها في أرجاء فلســطين قاطبة، إذ في ذلك النهار نفذ حكم الإعدام بالشــهداء الثلاثة، في ثلاث ساعات متوالية، فكان أولهم فؤاد حجازي، و ثانيهم محمد جمجوم، و ثالثهم عطا الزير، وكان من المقرر رســمياً أن يكون الشــهيد عطا الزير ثانيهم، ولكن جمجوم حطم قيده و زاحم رفيقه على الدور حتى فاز ببغيته»***.

وهنا يأخذ الشــاعر ريشــته ليصوِّر هذا اليوم المخضب بالدماء، وليســجل في ســفر الشعر الوطني الخالد مصارع أولئك الشهداء فتكون قصيدة إبراهيم طوقان «الثلاثاء الحمراء».

«وفي الحفلة السنوية لمدرســة النجاح بمدينة نابلس، ولم يكن قد مضى على تنفيذ حكم الإعدام سوى عشرة أيام، ألقى الشاعر إبراهيم طوقان قصيدته أمام الجمهور الذي كان

ما زال مستفـزاً ومستثاراً، وعواطفه لم تبرد بعد، وما أن ألقى الشاعر قصيدته حتى فقد السـامعون كل رباطة جأش، وكل هدوء، فكأنما خـرج الناس من لحومهم ودمائهم، فما أن انتهى الشـاعر من إلقاء قصيدته حتى كان بكاء الناس ونشـيجهم يملأ ساحة المدرسة، ثم اندفعوا خارج المدرسة في تظاهرة شديدة وعارمة، حتى قيل يومها «لو أن إبراهيم ألقى قصيدته في بلد فيها يهود لوقع ما لا يحمد عقباه».